سلسلة توجيه الأمة
(١)

تذكرة الحديثي والمتفقه

بقلم
صالح بن عبد الله العصيمي

دار الهجرة
للنشر والتوزيع

سلسلة توجيه الأمة
(١)



بقلم
صالح بن عبد الله العصيمي



الطبعة الاولى

١٤١٢هـ

دار الهجرة للنشر والتوزيع

هاتف ٨٩٨٣٠٠٤ (٠٣) الثقبة ـ ٤٧٩٢٠٥٥ (٠١) الرياض

فاكس ٨٩٥٢٤٩٦ (٠٣)

ص. ب: ٢٠٥٩٧ ـ الثقبة ٣١٩٥٢

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فهذه تذكرة أقبلتُ على رقمها لمَّ[1] رأيت انصراف الطلبة عن تلقي علم الفقه، علم أحكام العباد في النشأتين، ومبدأ السعادتين، وإقبالهم على علم السُّنة المطهرة رواية دون دراية[2]، وكان أهل الحديث أصحاب رواية ودراية حتى شغلوا بالرواية كما قال أبوثور لأبي زرعة الرازي[3] ـ محدث الري ـ: ـ

«لم يزل هذا الأمر في أصحابك حتى شغلهم عنه إحصاء عدد رواة من كذب عليَّ متعمدًا فغلبهم هؤلاء القوم عليه يعني أصحاب الرأي» ا.هـ.

(١) فائدة: صوّب الزبيدي في شرح الإحياء كتابتها وأشباهها على هذه الصفة دون (ألف) في آخرها موافقة للرسم القرآني في (عمَّ) ونحوها.

(٢) هي العلم وقيل هي اخص منه وانظر لسان العرب (١/٩٧٥) وتاج العروس (١٠/١٢٦).

(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص ٣٠).

وينبغي لطالب علم الفقه «أن يطالع من كل فن طرفًا من تأريخ وحديث ولغة وغير ذلك فإن الفقه يحتاج إلى جميع العلوم فليأخذ من كل شيء منها طرفًا».[1]

وماذاك حبس على طالب الفقه، بل على طالب العلم أن يأخذ من كل فن بطرف، وبئس حالُ طالب «أذهب عمره في القراءات فذاك تفريط في العلم لأنه إنما ينبغي أن يعتمد على المشهور منها لا على الشاذ.. أو يتشاغل بالنحو وعلله فحسب أو يتشاغل باللغة فحسب أو يكتب الحديث ويكثر ولا ينظر فيما كتب».[2] ا. هـ.

وأحسن بقول ابن الوردي:

من كل فن خذ ولا تجهل
فالحر مطلع على الاسرار
وإذا علمت الفقه عشت مصدرًا
من العالمين معظم المقدار

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص ٤٣٨).

(٢) الصَّيد (ص ٣٠٩) بتصرف.

وعـليـك بالإعـراب فأفـهـم سره
فالسر في الـتـقـديـر والاضـمار

وعلم الفقـه والحـديث أخـوا صفـاء وقـرينا وفاء، ولذلك قال ابن المديني «التفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعـرفـة الـرجـال نصف العلم».[1] وقـال أبـوعاصم النبيل «الرئاسة في الحديث بلا دراية رئاسة نذالة»[2]، «والمتصدر للتصنيف في كتب الفقه وإن بلغ في إتقانه وإتقان علم الأصول وسائر الفنون الآلية إلى حد يتقاصر عنه الوصف إذا لم يتقن علم السنة ويعرف صحيحـه من سقيمـه، ويعـول على أهله في إصداره وإيراده، كانت مصنفاته مبنية على غير أساس لأن علم الفقه هو مأخوذ من علم السنة إلا القليل منه وهو ما قد صرح بحكمه القرآن الكريم فما يصنع ذو الفنون بفنونه إذا لم يكن عالمًا بعلم الحديث متقنًا له معولاً على المصنفات فيه»[3].

(١) الجامع للخطيب (٢/٢١١).

(٢) الجامع (٢/١٨١) والمحدث الفاصل.

(٣) أدب الطلب للشوكاني (ص ٤٥ ـ ٤٦).

ولهـذا كان أعـدل المذاهب وأقواها في دقائق الفقه ومسائله مذهب المحدثين[1] لأنهم نهلوا من معين النبوة واقتبسوا من مشكاة الرسالة فعليها وردوا وعنها صدروا، حتى قال قائلهم:

وجــدنــا في الــروايــة كل فقــه

وأحــكــامًــا ومــن كل الــلغــات[2]

«وأقبح بمحدثٍ يُسأل عن حادثة فلا يدري، وقد شغله عنها جمع طرق الأحاديث، وقبيح بالفقيه أن يقال ما معنى قول رسول الله كذا فلا يدري صحة الحديث ولا معناه».[3] والثلب في الفقهاء لجهلهم طرق الحديث وصحته وضعفه، وفي المحدثين لجهلهم معنى الحديث وفقهه له أمثلة متعددة مبثوثة في كتب التراجم بل

---

(١) انـظر أوائل القواعد النورانية لابن تيمية وكلامًا نفيسًا للكنوي في إمام الكلام (ص ٢١٦) ومثله للطحطاوي في شرح الدر المختار (١٥٣/٤).

(٢) شرف أصحاب الحديث (ص ٦٣).

(٣) صيد الخاطر (ص ٣٩٩ - ٤٠٠).

مرقومة على وجه الحياة اليوم، وقد انتشرت هذه الفاجعة في أهل العصر فنسأل الله السلامة والسداد[1] ولمَّا رأيت انكبـاب أقـراني على علم الحـديث رواية بلا دراية، رقـمت هذه التـذكـرة، أضيء بها السبيل، وأدفـع الـدخيل، رافعًـا الصـوت قبـل الفوت بقول الناصح فارس بن الحسين رحمه الله:

يا طالـب الـعـلم الـذي
ذهـبـت بمـدتـه الـروايـة
كن في الـروايـة ذا الـ
ـعنـايـة بالـروايـة والـدرايـة
وأروِ الـقـليـل وراعـه
فالـعـلم ليس له نهايـة[2]

متصلاً بلاسلكي القلوب[3] بابن القيم الثاني الشيخ بكر أبوزيد بما قيد وأفاد ـ جزاه الله خيرًا ـ مع إقبالي على

---

(١) وانظر المرقوم بعد تحت عنوان. معركة لا تنبغي وحال محذورة.

(٢) فتح المغيث للعراقي (ص ٢٠٣).

(٣) من بدائع اصطلاحات سيد قطب رحمه الله.

نوادر الفوائد وشرائد الفرايد، في بطون كتب علماء الملة وفقهاء الأمة، فجعل الله عملي خالصًا لوجهه، وعلمي حجة لي لا عليَّ، وعليه توكلت وإليه أنبت

نصحت لكم فإن الـدين نصـح[1]
ولا اخـفـي نصـائـح واجبـات[2]

وكتب صالح بن عبدالله العصيمي
٢٧/ ٦/ ١٤١١ هـ

---

(١) من قولـه، ﷺ، «الـدين النصيحـة» رواه مسلم وانظر الاتحافات النجدية (رقم ٨) للمؤلف.

(٢) شرف أصحاب الحديث (ص ٦٣).

المبحث الأول: معرفة المحدث وفضله

قال السبكي في معيد النعم ومبيد النقم (ص ٦٧):

«إنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل، واسماء الرجال والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون، وسمع الكتب الستة ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني وضمّ إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية هذا أقل درجاته، فإذا سمع ما ذكرناه وكتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات المحدثين ثم يزيد الله من يشاء ما يشاء» ا. هـ.

وقال التاج ابن يونس في شرح التعجيز[1]: «إذا أوصى للمحدث تناول من علم طرق اثبات الحديث وعدالة رجاله، لأن من اقتصر على السماع فقط ليس بعالم» وكذا قال السبكي في شرح المنهاج.

---

(١) نقلاً عن تدريب الراوي (١/ ٢٤) وانظر كلامًا في حد المحدث لابن سيد الناس مرقوم فيه (١/ ٢٨ ـ ٢٩).

وقد كان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى واحـــد والحق أن الحـــافظ أخص كذا في التـــدريب (٢٩/١) وعنه الروض البسام (ص ٤٦).

ومن اشتغـل بتحصيل الأجـازات ورواية الحديث بإسنـاده فحسب فإنــما يسمى مسنـدًا فالمحـدث أرفع منه[1]، وهذا دأب جماعة من أهل العصر «وإنما كان الســلف يستمعــون فيقــرؤون، فيرحلون فيفسرون ويحفظون فيعلمون»[2].

وقد قال بعض الظرفاء في الواحد من هذه الطائفة[3]:

إنه قليل المعرفة والمخبرة، يمشي ومعه أوراق ومحبرة، معه أجزاء يدور بها على شيخ وعجوز، لا يعرف ما يجوز مما لا يجوز.

---

(١) التدريب (٢٤/١).

(٢) معيد النعم (ص ٦٢).

(٣) التدريب (٢٨/١).

ومحـدث قد صار غايـة علمـه
أجـزاء يرويها عن الـدميـاطي
وفـلانـة تروي حديـثًـا عالـيًـا
وفـلان يروي ذاك عن أسـبـاط
والـفـرق بين عزيـزهم وغـريبهم
وأفـصـح عن الخيـاط والحنـاط
وأبـوفـلان ما اسمـه ومن الـذي
بين الأنـام ملقـب بسـنـاط
وعـلوم ديـن الله نادت جهـرة
هذا زمـان فيـه طي بساطي ا. هـ

والنـاس اليوم يظنون أن من حفظ أربعين النووي ومنظومة البيقوني وطالع بلوغ المرام ورياض الصالحين وعرف تراجم العشرة وأبا هريرة وابن عباس وابن عمر وعـائشـة صار محدثًـا وينـادونـه ببخاري العصر وهذا فشار[1]، «فأين علم الحديث وأين أهله؟ كدت لا أراهم

(١) بضم الفاء أي الهذيان.

إلا في كتاب أو تحت تراب» كما قال الذهبي[1].

هذا في زمانه رحمه الله فكيف في زماننا هذا! اللهم رحمتك، فخذ هذه الذخيرة، وكن في معرفة المحدث على بصيرة، ولا تطلق هذا الشعار المكرم إلا على أصحابه. وفضل المحدثين معروف مألوف، لا ينكره إلا عدو حاقد، أو جهول حاسد، ونحن نذكر طرفاً لطيفًا من ذلك فنقول:

أخرج الحاكم في معرفة علوم الحديث (٢٦ ـ٢٧) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (٥٨ ـ ٥٩) وفي الرحلة في طلب الحديث (٨٦ ـ ٨٧) عن محمد بن يزيد الواسطي عن يزيد بن هارون قال: قلت لحماد بن زيد: يا أبا اسماعيل هل ذكر أهل الحديث في القرآن؟ فقال بلى ألم تسمع إلى قوله ـ عز وجل ـ ﴿**ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم**﴾. [التوبة: ١٢٢]. .

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (١/ ٤)

فهذا فيمن رحل في طلب العلم ثم يرجع به إلى من وراءه ليعلمهم إياه».

وأخرج الترمذي (٤/١٤٢) وابن ماجه (١/١٠٣) وأحمد (١/٤٣٧) عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا «نضر الله امرءًا سمع مني شيئًا فبلغه كما سمعه فربَّ مبلغ أوعى من سامع» ويروي هذا عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم[1]

قال سفيان بن عيينة الهلالي ـ رحمه المولى ـ «ما من أحدٍ يطلب الحديث إلا وفي وجهه نضرة لقول رسول الله، ﷺ، «نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا فبلغه»[2].

وأخرج مسلم في مقدمة صحيحه (١/٨٧) والترمذي في العلل الصغير (١/٣٥٩ ـ شرح ابن رجب) عن عبدالله بن المبارك قال: «الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء».

(١) انظر دراسة الشيخ عبدالمحسن العباد ـ حفظه الله ـ حول الحديث فهي وافية.

(٢) أخرجه الحاكم في المدخل (ص ٨٣ ـ الرسائل الكمالية) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (١٩).

وأخـرج ابن طاهـر في مقدمة مسألة العلو والنزول (١١) عن علي بن المـديني قال: «ليس قوم خيرًا من أصحاب الحديث الناس في طلب الدنيا وهم في إقامة الدين» وانظر شرف أصحاب الحديث (ص ٤٧، ٤٨).

وأخرج ابن طاهر أيضًا (١٥) وعنه ابن عساكر في تأريخ دمشـق (٢/٤٣٤/أ) سمـعـت أبـا الحسـن المطهر بن أبي علي العلوي بالري يقول سمعت أباسعد السمان إمـام المعتـزلة يقول «من لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام».

وقال ابن قيم الجوزيه في النونية (ص ٢١٥):

يا مبغضًـا أهـل الحـديث وشـاتمًـا
ابشر بعـقـد ولايـة الـشـيـطان
أو ما علمت بأنهم أنصـار الـرسول
لهم بلاشـك ولا نكـران
ما ذنبـهـم إذا خالـفـوك لقـولـه
ما خالـفـوه لأجـل قول فلان

نسبـــوا إلـــيـــه كل مقـــالـــة
أو حالـــة أو قاتـــل ومـــكـــان

وثناء علماء الأمة على الحديث وأهله مستفيض، أكثر من ان يُحصر هاهنـا، وإنـما أردنا الإشارة إلى ذلك، بوجيز العبارة، وفي ذلك الكفاية، فبالله لا تشغب على أهـل الحـديث والأثـر، وتـرميهم بالقبائح وأنت قليل النظر، وامتثل قول إمام أهل السنةّ والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله. [1]:

لا ترغـــبـــنَّ عن الحـــديـــث وأهـــلـــه
فالـــرأي لـيـــل والحـــديـــث نهار[2]

---

(١) جامع ابن عبدالبر (٢/ ٣٥) ومختصر ايقاظ همم اولي الابصار (ص ٣٤) وأصله (ص ٣٠) وساقها الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٧٦) على أنها لعبدة بن زياد الاصبهاني وفيه «لا تخدعنّ» ونسبه القاضي عياض في الالماع (ص ٣٨) لمحمد بن الزبرقان، ولم ينسبها ابن الوزير في الروض (١/ ٧) لاحد.

(٢) وانظر في هذا المبحث كتاب الحطة للعلاّمة صديق حسن خان رحمه الله.

المبحث الثاني: معرفة الفقيه وفضله

قال الإمام ابن بطة الحنبلي في إبطال الحيل (ص ٦):

فأما الفقه[1] في اللسان الفصيح فمعناه الفهم تقول فلان لا يفقه قولي، أي لا يفهم، قال الله عز وجل ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ أي لا تفهمون، وقوله ـ عز وجل ـ ﴿**ليتفقهوا في الدين**﴾. أي ليتفهموه فيكونوا علماء به، ومن ذلك قولهم فلان لا يفقه ولا ينقه معناه لا يفهم ولا يعلم». ا. هـ

وقال ابن الأثير في جامع الأصول (٩/١١٦): «الفقه العلم والدراية في الأصل[2]، وقد جعله العرف خاصًا بعلم الشريعة، وخاصة علم الفروع فإذا قيل فقيه

---

(١) في الأصل الفقيه وهو خطأ فاحش من الطابع.

(٢) وغلب على علم الدين لشرفة قاله الفيروز آبادي في القاموس وابن منظور في اللسان.

علم أنـه العالم بعلوم الشرع، وإن كان كل عالم بعلم فقيهًا». ا. هـ.

وقال التغلبي في نيل المآرب (١/٣٦) مُعرفًا الفقه في الاصطلاح: «معرفة الأحكام الشرعية الفرعية بالفعل أو بالقوة القريبة، والفقيه من عرف جملة غالبة من ذلك»[١].

فهذا هو حد الفقيه، وقد ذكر ابن بطة صفة الفقيه في كتابه «إبطال الحيل» (ص ٦ ـ ٢٦) فاختصرت ذلك مقتصرًا على بعض الرواية مما فيه النفع والكفاية.

عن مجاهد بن جبر المكي قال: «الفقيه من يخاف الله عز وجل» والراوي عنه ليث ابن أبي سليم ضعيف ومن طريقـه أخـرجه أيضًا ابن أبي شيبـة (١٣/٥٦٧) والدارمي (١/٨٩) وأبونعيم في الحلية (١/٨٩) وابن عبدالبر في الجامع (ص ٣٤٩).

وعن علي بن أبي طالب قال «ألا أخبركم بالفقيه كل الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من

(١) في الأصل: منها كذلك ولعل الصواب ما أثبت أعلاه.

مكر الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره» وإسناده ضعيف وأخرجه أيضًا الدارمي (١/ ٨٩) ورواه ابن عبدالبر في الجامع (ص ٣٤٣) مرفوعًا وضعّفه وأشار إلى أن أكثر الرواة يوقفه.

وكتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أبي موسى الأشعري «إن الفقه ليس بكثرة السرد، وسعة الهذر، وكثرة الرواية، وإنما الفقه خشية الله» وإسناده كسابقه.

وعن مطر الوراق قال سألت الحسن - يعني البصري - عن مسألة فقال فيها فقلت يا أبا سعيد يأبى عليك الفقهاء! فقال الحسن: ثكلتك أمك يا مطر وهل رأيت بعينك فقيهًا قط؟ وقال تدري ما الفقيه؟ الفقيه الورع الزاهد المقيم على سنّة رسول الله، ﷺ، الذي لا يسخر بمن أسفل منه، ولا يهزأ بمن فوقه، ولا يأخذ على علم علمه الله إياه حطامًا» وأخرجه من وجهين آخرين بهما القصة حسنة، كما في المنتقى من ذم من لا يعمل بعلمه (رقم ٥) لكاتبه.

وعن الحارث بن يعقوب قال: يقال إن الفقيه كل الفقيه من فقــه في القرآن، وعـرف مكيدة الشيطان. وأخرجه أيضًا ابن عبدالبر (ص ٣٤٥) وفي إسناده من لا تحضرني حاله.

وبـإسنـاد ساقط عن الفضيل بن عياض أنه قال: «إنما الفقيه الذي أنطقته الخشية، وأسكتته الخشية، إن قال: قال بالكتاب والسُّنة وإن سكت: سكت بالكتاب والسنة، وإن اشتبه عليه شيء وقف عنده ورده إلى عالمه».

فأين بعض فقهاء العصر من هذه الصفة، وإنما هَمُّ أحدهم أن يصير فُرجة، ولو صارت فتياه بفرخة.

وأما فضل الفقهاء - كثر الله سوادهم - فمشهود، من ذلك قوله جل وعلا ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾.

قال جابر بن عبدالله - رضي الله عنه - أولوا الفقه والخير - أخرجه الآجري في أخلاق العلماء (رقم ٥) وأبونعيم في الحلية (٣/٩٣) وابن عبدالبر (ص ٢٧٥).

وإسناده حسن، وفسرها مجاهد بن جبر وأبو العالية الرياحي وإبراهيم النخعي بالفقهاء أخرجه عن الأول والأخير الآجري (رقم ٦ و٧) وعن الأوسط ابن بطة (ص ٩) وفي الأسانيد إليهم ضعف[١]

وفي الصحيحين[٢] من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما مرفوعًا «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»، ومن لم يفقه في الدين فلم يرد الله به خيرًا قاله ابن المنير وغيره.

وقال الشافعي - فيما أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/٣٦) «إن لم يكن الفقهاء أولياء الله في الآخرة فما لله ولي» وتؤثر أيضًا عن أبي حنيفة - رحمه الله -[٣].

وقد عقد الخطيب فصلاً في الكتاب المذكور (١/٣٢ - ٣٦) أورد فيه أحاذيثًا تدل على جلالة الفقه والفقهاء فانظره إن شئت.

(١) انظر إعلام الموقعين (١/٩ - ١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (٦/٥٣ - ٥٤).

(٣) وقد أخرجها الخطيب في كتابه المذكور (١/٣٥).

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في صيد الخاطر (ص ١٦٩ ـ ١٧٠): «الفقه عليه مدار العلوم . . فإن اتسع الزمان للتزيد من العلم فليكن من الفقه فإنه الأنفع وقيد المهم من كل علم فهو سيد العلوم» ا. هـ.

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد (ص ٢٥٤):

«أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود ولاسيما حدود المشروع المأمور والمنهي، فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو داخل فيها، قال تعالى: ﴿**الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله**﴾. فأعدل الناس: من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفضلاً». ا. هـ

والمقصود بالفقه: الفقه المستمد من كتاب الله وسنةُ رسوله ﷺ، دون الفقه المبني على الرأي المحض المشحون بالاغلوطات[1].

---

(١) انظر كلمة للشيخ حسن بن صديق حسن خان في الروض البسا (ص ١٧ ـ ١٨) في التنبيه على ذلك.

المبحث الثالث: معركة لا تنبغي وحال محذورة

قد وقعت منذ قدم العهد نُفْرة مصطنعة بين المحدثين والفقهاء، يثيرها كتبة الحديث وصغار المتفقهة، لقصر نظرهم، فيتبادلون الغمز واللمز، فهذا الإمام أبوسليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) يقول في معالم السنن (١/ ٧٥):

«ورأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين، وانقسموا إلى فرقتين أصحاب حديث وأثر، وأهل فقه ونظر، وكل واحدة منهما لا تتميز عن أختها في الحاجة، ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه من البغية والإرادة، لأن الحديث بمنزلة الأساس الذي هو الأصل، والفقه بمنزلة البناء الذي هو له كالفرع، وكل بناء لم يوضع على قاعدة وأساس فهو منهار، وكل أساس خلا عن بناء وعمارة فهو قفر وخراب، ووجدت هذين الفريقين على ما بينهم من التداني في المحلين، والتقارب في المنزلين، وعموم الحاجة من بعضهم إلى بعض، وشمول الفاقة

اللازمة لكل منهم إلى صاحبه إخوانًا متهاجرين، وعلى سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غير متظاهرين، فأما هذه الطبقة الذين هم أهل الأثر والحديث، فإن الأكثرين منهم إنما وكدهم الروايات وجمع الطرق، وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب، لا يراعون المتون، ولا يفقهون المعاني، ولا يستنبطون سيرها، ولا يستخرجون ركازها وفقهها، وربما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن، وادعوا عليهم مخالفة السنن، ولا يعلمون أنهم عن مبلغ ما أوتوه من العلم قاصرون، وبسوء القول فيهم آثمون، وأما الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر، فإن أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقله، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه، ولا يعرفون جيده من رديئه، ولا يعبأون بما بلغهم منه أن يحتجوا به على خصومهم إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلوها، ووافق آرائهم التي يعتقدونها». ا. هـ.

وكذلك ذكر هذه المعركة الخطيب البغدادي في

شرف أصحاب الحديث (١٢٩ ـ ١٣٠) وكان حامل لواء التقريب بين المحدثين والفقهاء في عصره[١] فأغدق الله عليه شآبيب الرحمة.

واشتدت هذه المعركة وحمي وطيسها في هذا العصر، فوقع التراشق بالتهم والتنابز بالألقاب بين الطائفتين، وجاوز المعقول، ووقع أصحابها في المحذور لمخالفتهم هدي محمد ﷺ، فإن الناس فيه متعاونون في حمل لواء الدين وجمع كلمة المسلمين ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾. ولغفلتهم وشغل أنفسهم والمسلمين عن عدو الأمة الحقيقي الذي يتربص بالأمة الدوائر[٢].

وكلا الفريقين محفوظ له حقه، ومعروف فضله، فالمحدثون هم الذين جمعوا السنة وضبطوها، وميزوا بين صحيحها وسقيمها، والفقهاء هم الذين عنوا بفهمها واستنباط ما فيها من فقه وأحكام، وخير من الفريقين

---

(١) انظر رسالة الخطيب البغدادي بين المحدثين والفقهاء للشيخ محمود الطحان.

(٢) انظر حكم الانتماء (ص ٥٣ ـ ٥٤) لشيخنا العلّامة بكر أبوزيد.

المحدثون الفقهاء الذين جدوا في الجمع بين العلمين وحصلوا الفنين، وشر منهما كتبة الحديث الذين لا عناية لهم بفقه الحديث ولا درجته وإنما همهم التكثر بالأسانيد، والمتفقهة الذين لا يعرجون على الحديث والآثار في فقههم»[1].

فحذاري حذاري من هذه الحال، وإياك والولوج في هذه المعركة الخاسرة وأقبل على طلب الحديث والفقه.

---

(١) وانظر كلام الشيخ الطحان في خاتمة الرسالة المذكورة آنفا (ص ٣٧ - ٣٩).

المبحث الرابع: فضل الجمع بين الرواية والدراية

قال الـزمخشري: «العلم مدينة أحد بابيها الرواية والثاني الدراية»[1]، وأبلغ منه لأهل عصرنا[2] وسابقيهم أن يقال:

«العلم طير أحـد جناحيه الرواية والثاني الدراية»، فإن الطير لا يمكنه الطيران إلا بجناحين، فإن أصيب أحدهما لم يستطع الطيران.

فمن كان همه تحصيل الرواية بلا دراية كان كقول الشاعر:

زوامـــل للأسفـــار لا علم عنـدهم
يجيـــدهـــا إلا كعـــلم الأبـــاعـــر
لعـــمـــرك ما يدري المــطي إذا غدا
بأحمـــالـــه أو راح ما في الـغـــرائـــز

---

(١) دراسة حديث نضر الله أمرًا سمع مقالتي للشيخ العباد (ص ٢).

(٢) لأن المدن صارت بلا أبواب.

ومن كان همه تحصيل الدراية بلا رواية كان كقول الآخر:

وطـرق للمســائــل أي بأني
ولا يدري لعــمــرك ما طحــاهــا

ولا يحفلن فقيه بحديث «كونوا دارة ولا تكونوا رواة» فإنه حديث موضوع[1] ولو ثبت لأجيب عنه بأن الرواية مرتبـة تسبق الـدراية فلا يوقف عندها بل تتعدى إلى الدراية، فعليك بإدراكهما كما كان يحيى بن يحيى الليثي راوية الموطأ يفعل ففي ترتيب المدارك للقاضي عياض الـيحـصـبي (٢/ ٥٤١) عنــه أنــه قال: «كنت آتي عبدالرحمن بن القاسم فيقول لي: من أين يا أبا محمد؟ فأقول له: من عند عبدالله بن وهب فيقول لي اتق الله فإن أكثـر هذه الأحـاديث ليس عليهـا العمل ثم آتي عبدالله بن وهب فيقول لي من أين؟ فأقول له من عند ابن القـاسم فيقول لي اتق الله فإن أكثر هذه المسائل

---

(١) اخرجه الخطيب في نصيحة أهل الحديث (٩) وفي إسناده أبوالصلت الهروي كذاب.

رأي، ثم يرجع يحيى فيقول: رحمهما الله فكلاهما قد أصاب في مقالته نهاني ابن القاسم عن اتباع ما ليس عليه العمل من الحديث وأصاب، ونهاني ابن وهب عن كلفة الرأي وكثرته وأمرني بالاتباع فأصاب ثم يقول يحيى:

«اتباع ابن القاسم في رأيه رُشد، واتباع ابن وهب في أثره هدى»[1].

وهذا كان دأب السلف وطريقتهم، يضمون إلى الرواية الدراية، وإلى الدراية الرواية، وبه وصيتهم فقد أخرج الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ٢٤١) وعنه الخطيب في نصيحة أهل الحديث (ص ٣٧) عن مصعب الزبيري قال: سمعت مالك بن أنس قال لابني أخته أبي بكر وإسماعيل ابني أبي أويس «أركما تحبان هذا الشأن وتطلبانه - يعني سماع الحديث -؟ قالا نعم قال: إن أحببتما أن تنتفعا به، وينفع الله بكما فأقلا منه وتفقها».

---

(١) وروى بعضها ابن عبد البر في الجامع (٢/١٥٩).

وأخرج الخطيب في النصيحة (ص ١٩) عن علي بن خشرم قال سمعت وكيعًا غير مرة يقول:

«يا فتيان تفهموا فقه الحديث، فإنكم إن تفهمتم فقه الحديث لم يقهركم أهل الرأي».

ولا يزغك الشيطان وحزبه بدعوى: إنه لا فقه في الحديث، بل الفقه كل الفقه فيه، كيف لا وهو صادر عن رسول الله، ﷺ، وقد لقي أبوحنيفة رحمه الله وكيعًا فقال له لو تركت كتابة الحديث وتفقهت أليس كان خيرًا؟ قال وكيع أليس الحديث يجمع الفقه كله قال ما تقول في امرأة ادعت الحمل وأنكر الزوج؟ فقلت له حدثني عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي، ﷺ، لاعن بالحمل فتركني فكان بعد ذلك إذا رآني في طريق أخذ في غيره»[1].

(١) أخرج القصة الخطيب في النصيحة (ص ٤٠ - ٤١) والحديث بهذا الإسناد أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/٣٥٥) وفيه عباد بن منصور ضعيف يدلس عن عكرمة وأحاديثه عنه إنما رواها عن ابن ابي يحيى الكذاب عن داود بن الحصين عنه وأصل الحديث عند مسلم (١٠/١٢٧ - نووي).

وكان الإمام أبوحنيفة ـ رحمه الله ـ يتشدد في قبول الحديث لكثرة الوضع بالكوفة فقل اعتماده في فقهه عليها.

وشَهْد الكلام: إن جمع الرواية والدراية منقبة جليلة ومرتبة عظيمة فاجهد نفسك في تحصيلهما وأنظر المبحث المرقوم بأوسع في المحدث الفاصل (ص ٢٣٨ ـ ٢٦٠) وفي الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/) وطريقتي في هذا الكتاب الاختصار لضيق الوقت وكثرة المشاغل فاعتبر.

المبحث الخامس: دفع شبهة متوهمة

قال الإمام الشافعي لأحد أصحابه:

«أتـريد أن تجمـع بين الفقه والحديث؟ هيهات»!

وكـان شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي يقول «هذا الشـأن يعني الحـديث شأن من ليس شأنه سوى هذا الشأن»، وقال الخطيب البغدادي:

«علم الحديث لا يعلق إلا بمن قصر نفسه عليه، ولم يضم غيره من الفنون إليه»[1].

وقد تولد عند بعض الناس شبهة نبعت من خلل في فهم كلمات الأئمـــة رحمهم الله في هذا المبحث وهـو الجمـع بين الحديث والفقه، وإنما قصدهم إثارة همم الـطالبـين وبعث نفـوسهم لتحصيل ذلك، لا للقطع بامتناع ذلك وعدم القدرة على إدراكه، وهذا الوجه الذي صرنا إليه في تأويل كلامهم معروف في اللغة العربية

---

(١) جميعـه عن الرسالة المستطرفة (ص ٢٢١) وذكر في إرشاد الساري (١٩/١) كلام الشافعي والخطيب رحمهما الله.

فافهم، واطـرح هذه الشبهـة ، ولا تلُك لسـانك بها، وأعرض عن ذكرها ورسمها.

والأمـر رَاجـع إلى الأغلبية ـ كما أشـار الكتاني في الرسالة (ص ٢٢١) ـ والله أعلم ورد العلم إليه أسلم وأحكم.

وانظر تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ١٣٠) لترى حال الفقهاء الأوائل ثم تناقص الأمر من بعدهم والله المستعان.

المبحث السادس: حذار أن تكون من هؤلاء

احـذر يا طالب العلم أن تكون من هؤلاء الذين سنعقب بذكرهم، وعجل بنقل نفسك عن قربهم:

١ ـ الفقهاء والمحدثون الاغثار[١]:

الـذين يستعجلون التصـدر قبل التأهل، ويلقون الكلام على عواهنه، فيدّعون بما لا يعلمون، ويهرفون بما لا يعرفون، فدونك ذلك الفقيه[٢] الذي ينقل عن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ جواز الصلاة في الحمام المعروف اليوم، وإنما عنى ابن تيمية الحمامات العامة التي لاتزال بقاياها في أرض الشام وتركيا ويرِدها الناس للاستشفاء بمياهها الساخنة، وذلك المحدث حينما خرّج حديث عقد التسبيح باليمين يقول: وما أدري كيف يستجيز المسبِّح بيده الأخرى (يعني اليسرى) أن يسبح لله بيد يستنجي

(١) هم الجهال انظر لسان العرب (٦/٣٠٩).

(٢) كما حدثنا الشيخ الثقة دخيل اللحيدان.

بها؟ فسبحان الله أليس يدعو الله في الوتر وغيره بكلتا يديه[1].

٢ ـ الفقهاء والمحدثون الغنادر[2]:

جمع غندر وهو المشاغب المتطاول بلسانه، الوارث لما لا يورث من التسلط على العباد بداء الفحش والبذاء، المحروم من ميراث الانبياء في عفة اللسان وصيانته من الخنا

يُمارس نفســا بين جنبـيـه كزَّه
إذا همَّ بالمعـروف قالت له مهــلا

ومن تعجيل العقوبة له: تخلفه عن أقرانه في القيمة الأدبية رغم تحرقه وشدة تطلعه.

٣ ـ الفقهاء والمحدثون الخنفشاريون[3]

وهم جِراب الكـذب وعِيب الافـتراء، فإن سألت أحدهم عن مسألة عجل بسرد الأقوال والمذاهب، وإن

---

(١) قاله الشيخ بكر أبوزيد واعترض عليه.

(٢) هذا المبحث منقول مختصرًا عن رسالة التعالم (ص ٦٩ ـ ٧٢).

(٣) انظر التعالم (ص ١٥ ـ ٢٠).

كان محدثًـا ذكـر المخـرجـين وأحوال الرجال ومقالات الأئمـة، ويظنـون أنهم يحسنون صنعًا، وإنما أُتوا من حب المشيخة والتعالم على العالمين ولئن رصدت كلامهم وقيدته ثم عرضته على أمات[1] الكتب لوجدت دعواهم باطلة وفتواهم كاذبة فالله المستعان.

٤ ـ محدث مذهب:

قال ابن الجوزي في تحقيق التعليق ـ كما في مقدمة التنقيح ١/١٨٣ ـ:

«وألوم عندي ممن قدمته من الفقهاء جماعة من كبار المحـدثين، عرفوا صحيح النقل وسقيمه، وصنفوا في ذلك،فإذا جاء حديث ضعيف يخالف مذهبه بينوا وجه الطعن فيه،وإن كان موافقًا لمذهبهم سكتوا عن الطعن فيه، وهذا ينبىء عن قلة دين وغلبة هوى».

قال ابن عبـدالهادي في التنقيح (١/١٨٤): «وقد ضعف الحافظ أبوالفرج ـ رحمه الله ـ جماعة في موضع لمَّ

---

(١) فائدة: يقال أمات للجمادات وأمهات للاحياء.

كان الحديث يخالف مذهبه ثم احتج بهم في موضع آخر لمّ كان يوافق مذهبه» . ا . هـ.

فانظر إلى أبي الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ مع جلالـة قدره لم يسلم من ذلـك فإياك أن تكـون ممن يصحـح حديث «أبوحنيفة سراج أمتي» لأنه حنفي أو حديث «توشك أن تشد الركاب إلى عالم المدينة» لأنه مالكي أو حديث «الماء المشمس» لأنه شافعي أو حديث «الخط في الستـرة» لأنـه حنبـلي بل كن متخذًا أصول المحدثين سبيلاً إلى تمييز الثابت والواهي .

٥ ـ محدث هوى[1]:

ونعوذ بالله من ذلك، وهؤلاء الطرقية من الصوفية وأشبـاههم، يتسنمون علم الحديث ويصنفون فيه ما يقوي ترهاتهم، كالغناء، ولبس الخرقة، والنظر إلى الوجوه الحسـان، وهؤلاء الشداة بالتوسل البدعي يكتبون في عزر ذلك محتجين بالأحاديث النبوية، متبعين أهواءهم

---

(١) انـظر رسـالـة أسبـاب اختـلاف المسلمـين لمحمـد العبدة وطارق عبدالحليم (ص ٤٣ ـ ٧٨) .

(افرأيت من اتخذ إلهه هواه) ولا ينتج عن الهوى إلا البدعة والفرقة وبئس النتاج.

٦ ـ محدث دينار ودرهم:

همه في طلب الحديث وتحصيله أن يصنف من الكتب ويحرر من الرسائل ما يباع بالآلاف من الدراهم والدنانير فيكون من اصحاب الأموال، وليس له من علم الحديث حظ إلا بقدر نيته، وقد أفسدها فنعوذ بالله من تلك الحال.

٧ ـ فقيه الفتوى المستعجلة:

فإذا وقع السؤال في سمعه استشرف إلى الجواب، وكان السلف يتدافعون الفتيا ويهربون منها[1]، وكان السراج البلقيني لا يأنف من تأخير الفتوى عنده إذا أشكل عليه منها شيء إلى أن يحقق أمرها من مراجعة الكتب[2].

---

(١) وأبصر طرفاً من ذلك في كتاب آداب الفتيا والمفتي.

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٢١١).

٨ ـ الفقيه العصري:

فلا تكن من أولئــك الشـاردين الـذين يلهجـون بتـطويع الإسـلام لمقتضى العصر، حتى انـزلوا الشرع المبدل والموؤل محل الشرع (المنزل) من عدة طرق رتبها القاسطون:

وكم من فقيــه خابط في الضــلالـة
وحــجتــه فيهــا الكتــاب المنــزل

ومنها دعوى تغير الفتوى بتغير الزمان، وفتح باب الاجتهــاد، والتلفيق المــذهبي، وتقنــين الشريعـة، والتأويل لنصوص الأحكام، ومقارنة الإسلام بغيره من الأديان، وتخـريج الفـروع على الفروع المختلف فيها وبسط ذلك في كتاب التعالم (ص ٥٤ ـ ٥٧) فانظره.

٩ ـ فقيه نص فقط:

قد سُلِب البصيرة في الواقع، فإنه لابد من استكمال شروط الفتوى، من فقه الأصول وفقه الفروع، وفقه الواقع فيما يحتاج إليه فيه[١]، وهذا أصل قرره ابن القيم

---

(١) انـظر رسالة لحوم العلماء مسمومة (ص ٣٥) لشيخنا الشيخ ناصر العمر.

في إعلام الموقعين.

١٠ ـ **الفقيه الكلمي**:

وهو الذي يتزيد في الكلام فيتشبع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور، «وليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد»[1].

وقد أحسن القائل[2]:

لي حيلة فيمن ينم
وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول
فحيلتي فيه قليلة

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب (ص ٥٣ ـ ٥٨)، وسير الأعلام للذهبي في ترجمة عثمان بن سعيد الدارمي.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٦/١٧٢، ١١/٣٢٧).

المبحث السابع: إضاءات مهمة

الإضاءة الأولى: فصل الخصام بين داعي الدليل وداعي التقليد.

المذهب الحق، والقول الصدق، والطريق السوي، والمشرع الروي، الأخذ بالدليل مع إجلال أئمة العلم والدين، ولا لوم في الانتساب المَجرد من العصبية، اتباعًا للسنن، وقفوًا للأثر، ولا عصمة لإمام سوى سيد البشر، ﷺ، وحيث يوجد الدليل يكون هو مذهب ذلكم الإمام كما صرح به كل واحد من الأربعة المشهورين فيكون ما نزع إليه للدليل هو التقليد في صورة ترك التقليد ومن كان كذلك فهو بحق من أتباع ذلك الإمام[1].

والمنصف من لزم المقالة الذهبية «ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ.

(١) التعالم (ص ١٠٧).

فائـدة: هذه الكلمة قالها ابن عباس فأخذها عنه مجاهد ثم الحكم بن عتيبة وأخذها عنهما مالك ثم الإمام احمد ثم ابن خزيمة.

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أوردها السبكي في الفتاوى (١/١٤٨).

وعن مجاهد أخرجها البخاري في رفع اليدين (١٢٤ ـ نسختي) وأبـونعيم الاصبهـاني في الحلية (٣/٣٠٠) وابن عبدالبر في الجامع (٢/٩١).

وعن الحكم أخرجِها ابن حزم في أصول الأحكام (٦/١٤٥).

وعن مالـك صححهـا ابن عبـدالهـادي في إرشـاد السـالـك (١/٢٢٧) وذكـر السبكي في الفتـاوى (١/١٤٨) أنها اشتهرت عنه.

وعن أحمد أخرجها أبوداود في المسائل (٢٧٦).

وعن ابن خزيمة ذكرها ابن حجر في فتح الباريء.

الإضاءة الثانية: لا يتبع العالم بزلته ولا يؤخذ بهفوته.

احـذر زلـة العالم فتجنبها، وتنح عنها ولا تتبعها، وإياك والتثريب عليه، وإطلاق اللسان بالجرح فيه، فإن ذلك جهل مخزي، وداء مفني، ورحم الله الحسين بن الفضل حين قال[1]: «لكل عالم هفوة»[2].

ولا يهولنك منزلة الرجل فما منا وإلّا، «وإنما ينبغي اتبـاع الصـواب ولا ينظر إلى اسماء المعظمين أن يتبع الدليل»[3]، وإنما يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالـرجال، ولا تثرب على من قام ببيان الزلة وإيضاح الهفوة «فـمازال الأئمة يخالف بعضهم بعضًا ويرد هذا على هذا»[4] «ومازال العلماء قديمًا وحديثًا يرد بعضهم على بعض في البحث والتواليف»[5].

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص ١٨).

(٢) وانظر تمام العرض لهذا المبحث في التعالم (ص ٧٩ ـ ٨٧).

(٣) صيد الخاطر (ص ٤٧١).

(٤) السير (١٩/٣٤٦).

(٥) السير (١٢/٥٠٠ ـ ٥٠١).

وإن كنـا والله صرنا في زمن كزمن ابن قتيبة أديب أهل السنة حين قال[1] : «قد كنا زمانًا نعتذر من الجهل، فقد صرنا الآن نحتاج إلى الإعتذار من العلم، وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة، فصرنا نرضى بالسلامة، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال، ولا ينكر مع تغير الزمان وفي الله خلف وهو المستعان».

فأصبر واحتمل ولك الأجر الغدق.

---

(١) إصـلاح غلط أبي عبيد في غريب الحـديث بواسطة غوث المكدود (١/ ٨٩ ـ ٩٠).

الإضاءة الثالثة: الزجر عن حمل الشواذ وغثاثة الرخص[1]

إياك وطريق يسلكها صاحب شواذ، فإن من عِقد أهل السنة والجماعة أنهم يجتنبون الشذوذ والخلاف والفرقة[2]، وشواذ العصر أنكى من شواذ من مضى فهي وليدة التعالم المحض ومولدة للطرح والرفض.

فلا تكن ممن يقبل على الشواذ، ويتلذذ بها، فإن ذاك سم ناقع، موصل للزلل، وعليك بجماعة المسلمين.

ثم إياك وتتبع الرخص وجمعها، والأقبال على اتيانها وحفظها، فإنها زندقة صغرى وشعار سفاهة كبرى.

وعليك بما رقمه الشيخ الفاضل جاسم الدوسري في رسالته النافعة «زجر السفهاء عن تتبع رخص الفقهاء» فاظفر بها [تربت يداك][3].

---

(١) انظر التعالم (ص ٨٩) فيما بعد.

(٢) العقيدة الطحاوية.

(٣) ما بين القوسين زيادة من بعض الأفاضل الناصحين.

الإضاءة الرابعة: التوقي في الغلط على الأئمة

اجتنب الغلط على الأئمة، المنبعث من سوء الفهم لعباراتهم، أو عدم الصحة في النقل عنهم، فإن ذاك أس الزلل، ورأس الخلل، ونعوذ بالله من تحميل كلامهم ما لا يحتمل، أو تقويلهم ما لم يقولوا.

وليحذر الفقيه مما في كتب المتأخرين من نسبة الأقوال إلى إمام وهو لم يقلها بل خُرِّجت على قول له، ثم لم يتبين ذلك فعزيت له، قال الإمام محمد بن عبدالوهاب[1]: «أكثر ما في الاقناع والمنتهى مخالف لمذهب أحمد ونصه، فضلاً عن قصد رسول الله، ﷺ، يعرف ذلك من عرفه» وقال نحو ذلك في كتب المتأخرين من أهل المذاهب.

وإذا توثقت من صحته عنه، فتفكر في مراده منه ولا تكن كصاحب الصلاة في الحمام[2]، وإذا علمت مراده

---

(١) مقدمة حاشية الروض المربع لابن قاسم (ص ١٧ ـ ١٨) وانظر تمام كلام ابن قاسم رحمه الله هناك.

(٢) تقدم في المبحث السادس.

منه بالطريق الموصل إلى ذلك، فتأكد من عدم رجوعه عنه.

ووقائع هذا المبحث تجد نصيبًا كافيًا منها في كشف الأجلة عن الغلط على الأئمة[1] للشيخ بكر أبوزيد ـ حفظه المولى ـ وطرف منها مذكور في التعالم له (ص ٩٩ ـ ١٠٤).

---

(١) ولم يطبع بعد.

الإضاءة الخامسة: طريق البداية ومعراج النهاية

اعلم أن طريقة الأئمة الأعلام من الفقهاء والمحدثين الحرص على الحفظ[1]، فإنك بالحفظ تجمع العلم في صدرك:

وليس علمًا ما حوى القمطر
ما العلم إلا ما حواه الصدر

وقال محمد بن بشير رحمه الله:

إذا لم تكن حافظًا واعيًا
فجمعك للكتب لا ينفع
أأحضر بالجهل في مجلس
وعلمي في الكتب مستودع[2]

فيحسن بالطالب أن يحفظ متنًا في الحديث، وثانيًا في الفقه، وثالثًا في العقيدة، وهكذا مع تعاهد محفوظه من حين لآخر.

---

(١) انظر حكمة الله في الحفظ والنسيان في مفتاح دار السعادة (١/ ٢٧٧).

(٢) الجامع لبيان العلم وفضله لابن عبدالبر (ص ٢١٥).

قال ابن عبدالبر في التمهيد (١٤/١٣٣ ـ ١٣٤) ـ لمّ ذكر حديث إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها وإن اطلقها ذهبت ـ:

«وفي هذا الحديث دليل على أن من لم يتعاهد علمه، ذهب عنه، أي من كان، لأن علمهم كان ذلك الوقت القرآن لاغير، وإذا كان القرآن الميسر للذكر يذهب إن لم يتعهد فما ظنك بغيره من العلوم المعهودة، وخير العلوم ما ضبط أصله، واستذكر فرعه، وقاد إلى الله تعالى، ودل على ما يرضاه»[1].

وقد يشق الحفظ في أول الأمر، ولكنه يسهل مع الممارسة والتعود، فإن الله جعل في هذا القلب القدرة على حفظ العلم، والاتساع مع زيادته، ولذلك قال العلم كل وعاء أفرغت فيه شيئاً، فإنه يضيق إلا القلب فإنه كلما أُفرغ فيه اتسع، وقال الزهري «انّ الرجل

(١) انظر صيد الخاطر (ص ٢٠٥) وانظر طرفاً من سير السلف في تعاهد محفوظاتهم في جامع الخطيب (٢/٢٦٥).

ليطلب وقلبه شعب من الشعاب ثم لا يلبث أن يصير واديًا لا يوضع فيه شيء إلا التهمه»[1].

ولئن سألت أيما أفضل للحفظ أكل اللبان أم اجتناب التفاح لأجبتك: ما وجد دواء مركب للحفظ كالتقوى واجتناب المحرمات، فإنما العلم الخشية كما قال ابن مسعود، وقال مالك وقد سئل هل يصلح للحفظ شيء فقال إن كان يصلح له شيء فترك المعاصي[2]، وقال بشر بن الحارث إن أردت أن تلقن العلم فلا تعص[3]، وقال الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال أعلم بأن العلم نور
ونور الله لا يؤتاه عاصي

---

(١) الحث على طلب العلم للعسكري (ص ٧١).

(٢) الجامع للخطيب (٢/ ٢٥٨).

(٣) المصدر السابق.

واغتنم وقت الشباب فإنما تقبل الطينة الختم مادامت رطبة[1]، ولخلف الأحمر:

ليس عطف القضيب إذ كان رطبًـــا

وإذا كان يابـــسًـــا بســـواء[2]

---

(١) نصيحة أهل الحديث (ص ٢٣).

(٢) الجامع لابن عبدالبر (١ / ٨٤).

الإضاءة السادسة: تحقيق مراتب المسلم الأربع

أعلم أن المسلم مطالب بأربع مراتب[1] هي: العلم ثم العمل به ثم الدعوة إليه ثم الصبر على ذلك.

فأما العلم فلقوله جل وعلا ﴿**فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك**﴾.

وأما العمل فلقوله: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾. وعليك بمنتقى ذم من لا يعمل بعلمه للمؤلف.

وأما الدعوة[2] فلقوله: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين**﴾.

وأما الصبر عليها فلقوله: ﴿**وما يلقاها إلا الذين**

---

(١) انظر الأصول الثلاثة وأدلتها للامام محمد بن عبدالوهاب فإن له كلامًا نفيسًا في ذلك.

(٢) ولا تغفل رعاك الله أن الدعوة مجالات فاختر فأنت على ثغر الجهاد وهذا على ثغر العلم وثالثكما على ثغر التصنيف ورابعكم على ثغر الوعظ وخامسكم على ثغر التربية. فكونوا يدًا واحدة ولا تتفرقوا ولا يطعن بعضكم في بعض وخيركم جامعها.

صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم﴾ . فجد في طلب العلم وتحصيله، وجمعه وتدوينه، ثم لا تكنزه بل بثه فإنما يبقى العلم بثلاث كما قرره الوزير ابن هبيرة بالعمل والتعليم والتصنيف(١).

وتمام زكاة العلم بعد العمل: الدعوة إليه بنشره إما رقمًا أو تلقينًا، واصبر فإن الطريق وعر والعدو يترقب وتيقن إنه يُدْرِكَ قول الأول:

ولست بناج من مقالة طاعن
ولو كنت في غابة على جبل وعر
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا
ولو غاب عنهم بين خافيتي نسر(٢)

فاجتهد في طلب العلم، وزكه بالعمل، ووثقه بالدعوة، وأبقه بالصبر، وتمثل وصيتي(٣).

«اعلم واعمل وادع واصبر، وأيقن ختامًا أن ستنصر» .

---

(١) المنهج الأحمد للعليمي (٢/٣٥٢).

(٢) الخوافي ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت وتكون وراء القوادم.

(٣) انظر آخر رسالة «الدرء لتصحيح حديث من حسن اسلام المرء» لراقمه.

الإضاءة السابعة: أهمية الحجر لاستصلاح الأديان

اعلم ان الحجر لاستصلاح الأديان أولى من الحجر لاستصلاح الأموال والأبدان، والواجب على الولاة إقامة سوق الحجر على المتعالمين المتعرضين للفتيا وبذل العلم قبل التأهل، كما يجب وقف الفتيا على أفراد دون آخرين وقصرها عليهم، ويُروى أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال لابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ «نبئت أنك تفتي الناس ولست بأمير فولّ حارّها من تولى قارّها».

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/٤٩٥): «يدل على أن مذهب عمر أن يمنع الإمام من أفتى بلا إذن».

وكان يُنادى في زمان بني أمية أيام الحج أن لا يفتي للناس إلّا عطاء بن أبي رباح فإن لم يكن عطاء فعبدالله بن أبي نجيح[1] وعن حماد بن زيد أنه سمع مناديًا في المدينة «أن لا يفتى في مسجد رسول الله، ﷺ، سوى

---

(١) انظر السير: ترجمة عطاء بن أبي رباح.

مالك»[1].

وذكر أبو عمر ابن عبدالبر عن مالك أخبرني رجل أنه دخل على ربيعة فوجده يبكي فقال ما يبكيك أمصيبة دخلت عليك وأرتاع لبكائه فقال لا ولكن استفتي من لا علم له وظهر في الإسلام أمر عظيم قال ربيعة:

«ولبعض من يفتي ههنا أحق بالحبس من السُّرَّاق».

نقله ابن القيم في بدائع الفوائد (٣/٢٧٧) وعلق عليه بكلام نافع فانظره هناك، والمقصود أنه ما كل امرىء علم حرفًا أصدر فتيًا بل لا يؤذن لأحد حتى يحصِّل ما يقيم به عماد العلم والفتيا والله أعلم.

---

(١) انظر السير: ترجمة مالك بن أنس.

خاتمـــة

وبعــــد:

فهذا رقم لك غنمه وعليَّ غرمه، كتبته على عجالة، لما أخذ الله من الميثاق والرسالة، حثًا على طلب الفقه والحديث، وتقريبًا بين نزاع أصحاب المدرستين، سيراً على منهج السلف، فأجهد نفسك في طلبهما، واحذر التنقص لأحـدهما، والله أسأل حسن المقالة، وتحقيق الإصابة، وستر العيوب، وغفران الذنوب.